الاستقامة

نقف الآن مع خُلُقٍ قرآني أُمِرَ النبي ﷺ أن يستمسك به وأن يدعوا إليه؛ ألا وهو خلق الاستقامة.

حدودها وسُبل تحقيقها:

إننا نقول عن الطريق المستوي الذي لا عوج فيه: إنه طريق مستقيم، وبه شبَّه طريق المُحقِّ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [1]، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣ ﴾ [2]

واستقامة الإنسان: لزومُه المنهجَ المستقيم ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢ ﴾ [3]

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ استقم على القرآن، استقم على أمر ربك والدِّين الذي ابتعثك به والدعاء إليه كما أمرك ربُّك ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ﴾ [4]

---

(١) الفاتحة : ٦.

(٢) الأنعام : ١٥٣

(٣) هود : ١١٢.

(٤) فصلت : ٦.

إن للطريق معالمَ وحدوداً، والإنسان مع الطريق المستقيم مُتَّبع لا مبتدع

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ﴾ (١)

إنه طريق الحقِّ، وماذا بعد الحقِّ إلا الضلال، فاتبعوه ولا تَطْغَوا؛ أي: لا تَعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه؛ فليس للهوى في هذا الطريق نصيب ولا لاتباع الشهوات موضع. فاتقوا الله أيها الناس أن يطَّلع عليكم ربكم وأنتم عاملون بخلاف أمره، إنه بما تعملون بصير.

ولكن ما سبيل الاستقامة وكيف تتحقق ؟

لا بُدَّ من استقامة القلب أولاً؛ حتى تستقيم الجوارح، واستقامة القلب كما ذكر ابن القيم في كتابه (الوابل الصَّيِّب) تكون بشيئين:

* **أحدهما**: أن تتقدم محبةُ الله تعالى عنده على جميع المحابِّ. فإذا تعارض حبُّ الله تعالى وحبُّ غيره، سبق حبُّ الله تعالى حُبَّ ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه.

وما أسهل أن يُدَّعى هذا، وما أصعبَ أن يُفعل؛ فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وما أكثر ما يقدِّمُ العبدُ ما يحبُّه هو ويهواه، أو يحبُّه كبيرُه، وأميرُه، وشيخُه، وأهلُه على ما يحبُّه اللهُ تعالى. فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحابِّ.

وسنَّةُ الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكِّد عليه محابَّه، وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبُّه على محبة الله تعالى، وقد قضى الله قضاء لا يُردُّ ولا يُدفَع أن مَن أحب شيئاً سواه عُذِّب به ولا بُدَّ، وأن مَن خاف غيره سُلِّط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره

(١) الأنعام : من الآية ١٥٣.

كان شؤماً عليه، ومن آثر غيرَه عليه لم يُبارك فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخَطَه عليه ولا بُدَّ.

* **الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب**: تعظيم الأمر والنهي. وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي؛ فإن الله ذمَّ من لا يعظم أمرهَ ونهيَه؛ فقال سبحانه: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [1] قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة. وما أحسن ما قال شيخ الاسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو « ألاَّ يُعارَضا بترخُّصٍ جَافٍّ، ولا يعارضنا بتشديد غالٍ، ولا يُحملا على علَّة توهن الانقياد »

ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق ﷻ تعظيمُ أمره ونهيه؛ وذلك لأن المؤمن يعرف رَبَّه ﷻ برسالته التي أَرْسَلَ بها رسولَ الله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقيادُ لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيمِ أمرِ الله ﷻ واتِّباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاًّ على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بِحَسْبِ هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان اليقين وصحةِ العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر؛ فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق، وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهيَ خشيةَ سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتَّبها الشارعُ على المناهي.

فهذا ليس فعلُه وتركُه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمر الناهي؛ فعلامة التعزيم للأوامر رعايةُ أوقاتها وحدودِها، والتفتيشُ على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرصُ على تحيُّنها في أوقاتها، والمسارعةُ إليهَا عند وجوبها، والأسفُ عند فوت حقٍّ من حقوقها.

---

(١) نوح : ١٣.

أيها القارئ الكريم:

هل أدركت كيف يستقيم القلب قبل استقامة الجوارح بِحُبِّ الله وتعظيم أمره ونهيه ؟ وهل يمكن أن يتحقق إيمانٌ بغير هذا الحب ؟

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَــلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْــرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » (١)

أما تعظيم الأمر والنهي فلا يمكن أن تستقيم الطاعة إلا به؛ إذ كيف تطيعُ من لا تحترمُ أمره ؟ وبرهان احترامك أن تستشعرَ دائماً فَضل الآمر عليك وبرَّه بك ورحمته فيما يأمرك به أو ينهاك عنه، وأن تتقبل ذلك بصدر منشرح وقلب مُحِبٍّ خاشع صادق سليم **﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾** (٢)

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣)

اللهم اجعلنا منهم.

✿✿✿

(١) متفق عليه.

(٢) النساء : ٦٥

(٣) النور : ٥١، ٥٢.

آثار الاستقامة ونتائجها:

الاستقامة خلق قرآني تَخَلَّقَ رسول الله ﷺ به، وقد **كان خُلُقُهُ القُرآن**، وقد عرفنا حدودها من كتاب الله وسُنة نبيه وسبُل تحقيقها، ووقفنا عند استقامة القلب التي لا تتم إلا بحُب الله وتعظيم أمره ونهيه.

والآن نعيش بك مع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الاستقامة؛ لنعرف آثارها ونتائجها بعد أن عرفنا حدودها وسُبُل تحقيقها.

في سورة فصِّلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

و في سورة الأحقاف: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

وفي مسند أحمد عن أبي عمرو – وقيل: أبي عمْرة – سفيان بن عبدالله رضي الله عنه قال: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلاً لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ. قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » (٣)

---

(١) فصلت : ٣٠-٣٢.

(٢) الأحقاف : ١٣، ١٤.

(٣) رواه أحمد.

الله أكبر. « قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ »

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ إنه منهج حياة للضمائر والقلوب، منهج حياة للمعاملة والسلوك، إنها العقيدة التي تتجدد بها صلات الناس.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فلا نعبد غيرَه ولا نشركُ به شيئاً.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ نحبُّ ونُبغِضُ فيها، ونصبر عَلى ما نلاقي في سبيلها، وهل فاز المسلمون إلا بالصبر على عقيدتهم ؟ وهل عُودوا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنـــا الله ؟! وهل يتخلى اللهُ عمَّن يَصْـــدُق فيها ويخلص في القيام بتبعاتها ؟!

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (٢)

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ تلك هي العقيدة التي عَبَّر الرسول عنها بقوله: « قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ » على منهج هذه العقيدة، واثبت عليها ولا تمل عنها ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ (٣)، ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) الأحقاف : ١٣.
(٢) الحج : من الآية ٣٩، الآية ٤٠.
(٣) هود : من الآية ١١٣

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [1] .

عندئذ تنـــزل ملائكة الله؛ لتثبت النفوس، وتُطمئن القلوب، وتسُوق البشرى إلى الثابتين على الطريق. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [2]

إنها النصرة من جند الله الموحى إليهم ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ ﴾ [3] إنه التأييد للذين يثقون في الله ويثبتون على الطريق، إنه طريق واحد لا يتعدد، طريق الاستقامة على قولهم ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾، « قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ » ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [4]

إن أمتنا الإسلامية وهي تنشد وحدتها لا طريق لها إلا صدق الإيمان بربها، والاستقامة مع مستلزمات الإيمان ومتطلباته.

إنها وهي تنشـــد نصرَ الله، وتطلب تأييده، لا بُدَّ أن يكـــون شعارُهـــا دائماً ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ وحده الذي نعبده؛ وحده الذي ندعو إليه؛ وحده الذي نعتمد عليه،

(١) الزخرف : ٤٣.
(٢) فصلت : ٣٠، ٣١.
(٣) الأنفال : من الآية ١٢.
(٤) الأنعام : من الآية ١٥٣.

وحده الذي نحتكم إليه.

وهي بغير هذا الإعلان الواثق الصادق المعْتز لن تجد لها من دون الله وليًّا، ولن تجد من دونه نصيراً.

إن الصراط المستقيم الذي أُمرنا باتباعه قد حُدِّدت معالُمه، وَبَيِّنَتْ محارمُـــه، و « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ » (١)

ولنا من تجربة التاريخ ما يُردع النفوس المبتدعة، ويردها إلى شريعة الله التي لم نعرف لأنفسنا عزًّا إلا بها، ولا نصراً إلا بنُصرتها، ولا فوزاً إلا تحت رايتها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

إن الاستقامة على الطريق تحتاج إلى عمل وجهد ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣)

إنه دين للواقع، كلٌّ واقع مع كل زمان ومكان يعالج قضاياه باسم الله وابتغاء مرضاته، وذلك هو الجهد الإنساني.

إنه جهد التطبيق، جهد الثبات وعدم الميل مع الهوى. إن عواصف متعددة قد يبتلي المؤمنون بها في كل عصر؛ ليعرف أمر الإيمان، وتنكشف حقيقة الناس أمام أنفسهم ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا

(١) متفق عليه.

(٢) الأحقاف : ١٣، ١٤.

(٣) السجدة : من الآية ١٧.

يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (١)

وأمام هذه العواصف تنكشف معادن الناس وتُعرف خصائصهم.

ولقد واجه المسلمون - بعد موت نبيهم - انقضَاضَ الناس عليهم ومحاولة التفلت من بعض الفرائض، فوقف أبو بكر ليقول: « أفينتقص هذا الدينُ وأبو بكرٍ حي، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه متى استمسك السيف بيدي، ولو قاتلتهم وحدي »

فماذا كانت نتيجة هذه الوقفة الصامدة المستقيمة المتجردة ؟

كانت تأييداً من الله ونشراً لدينه وإعلاءً لكلمته.

لقد عبَّرت أمُّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - عن موقف والدها الذي كشفت المحنة، عن مكانته فقالت: « لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ».

فهل يعي المسلمون طريق عَزِّهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة ؟ ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (٢)

✿✿✿

(١) العنكبوت : ١-٣.

(٢) الأنعام : ١٥٣.

obeikandl.com